النثر الجهادي في عصر المرابطين

أ.د. حازم عبد الله خضر

بين يدي البحث:

لم يكن النثر الاندلسي قبل عصر المرابطين وبعده أقل شأنا من سون الشعر في التعبير عن الحياة الاندلسية في جوانبها العديدة، بل كان دوره واضحا في هذه الحياة منذ مراحلها الاولى ويكفي أن نشير الى الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد قبيل افتتاح الاندلس وما تلاها من صنوف الخطب والرسائل النثرية للامراء الاندلسيين في سياق معالجتهم مشكلات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها في نصوص عديدة شغلت مساحات كبيرة من مصادر الادب والتاريخ الاندلسيين ويشغل النثر الجهادي من هذا النثر قدرا وافرا في فترات الاندلس المتوالية وبخاصة عصر المرابطين حيث الجهاد والمرابطة وبذل كل نفيس للحفاظ على بيضة الاسلام في الاندلس مما استدعى دراسة النصوص النثرية المعبرة عن ذلك أصدق تعبير وادقها تأكيدا لاهميته ومكانته كما ونوعا، الى جانب ما يؤكده البحث من توضيح لسمات عصر المرابطين وجهودهم في العمل على جمع كلمة امراء الطوائف بالاندلس والوقوف ضد اعاصير حملات الاعداءالمتربصين بهذه الدولة وما كانوا يبذلونه من جهود في بث الفرقة والضعف والتناحر بين المسلمين في شبه الجزيرة وأسقاط المدن تباعا ثم القضاء على حضارة عريقة إيجابية متوازنة خدمت البشرية قرونا ووضعت لنهضاتها التالية الاسس والقواعد المهمة في كل ميدان من ميادين المعرفة العلمية والادبية.

ولتحقيق هذه الاهداف جاءت الدراسة في تمهيد، تناول التعريف الموجز بعصر المرابطين ومقدمات لدخولهم الاندلس، تتلوها كلمة مختصرة عن النثر قبل عصر المرابطين، أي منذ الفتح وحتى نهاية عصر الطوائف [1].

ثم عرض البحث لموضوعات النثر الجهادي مع الاشارة الى تلك الموضوعات مرتبة حسب المساحات التى شغلتها في مصادر الاندلس والمشرق وتحليل موجز يلقي الاضواء على

---

* أستاذ الادب الاندلسي / قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة الموصل.

٢٦

اهمية الموضوعات وصلتها بالحياة الجهادية وتعبيرها عن اهداف امراء المرابطين في توليهم حكم الاندلس بعد يأسهم من إصلاح ملوك الطوائف وجمعهم علىكلمة سواء.

وكانت الموضوعات المهمة هي: رسائل الجهاد والفتوح والاستصراخ وخطاب المتمردين والدعوة الى وحدة الصف وجمع الشمل.

وتناول البحث بعد ذلك النظر في ابرز سمات النثر الجهادي مستخلصة من التأمل في النصوص النثرية على صعيدي المضمون والشكل لتكون الصورة أقرب الى الوضوح والتكامل وتضع هذا الفن النثري في مكانه المناسب من تراث الاندلس العريق.

عصر المرابطين:

كانت دولة المرابطين في المغرب قد بلغت أوج قوتها على يد الامير يوسف أبن تاشفين الذي تولى الحكم بعد أبن عمه أبي بكربن عمر اللمتوني الذي خلف عبد الله بن ياسين بعد استشهاده مجاهدا مرابطا سنة ٤٥٦هـ ، في هذه الفترة كانت الاندلس تجتاز ازمتها السياسية الخانقة على يد أمراء الطوائف ضعفا وتفرقا وصراعا مع أنصراف عدد منهم الى اللهو والمجون وامعانهم في الترف والبذخ والاسراف، إضطروا بعده الى الإستنجاد باخوتهم المسلمين المرابطين في المغرب، وكانت أولى صيحات الإستنجاد بأمير المرابطين يوسف من قبل المعتمد أبن عباد في رسالة بعث بها اليه يستصرخه ويثير فيه حميه الاسلام ونخوة الايمان والاخوة الإسلامية، ويستجيب الامير ويدخل الاندلس لاول مرة سنة ٤٧٩هـ ويواجه زحف الاسبان الشرس في معركة الزلاقة الشهيرة التي كانت بداية النصر وبارقه الامل في الحفاظ على الكيان الاسلامي الاندلسي وكان جواز الامير يوسف الى الاندلس للمرة الثانية سنة ٤٨٢ هـ بعد استغاثة المعتمد ابن عباد للمرة الثانية، ولكن أمير المسلمين يوسف يقرر في هذه المره خلع ملوك الطوائف عند إجتيازه الاندلس للمرة الثالثة سنة ٤٨٣هـ بعد يأسه من إصلاح أحوالهم وأستقامة سيرهم وبهذا يكون حكم المرابطين للاندلس قد بدأ ثم استمر حتى استيلاء الموحدين على الحكم في المغرب ومد نفوذهم الى الاندلس تبعا لذلك.

كان عهد المرابطين عهد جهاد وجلاد ومرابطة لايقاف زحف الاسبان الى جانب ما أتسم به العهد من حرص على تطبيق أحكام الشريعة والعمل على تحقيق حالة من الاستقرار والهدوء على الرغم من قوة الاسبان واستمرار كيدهم وتربصهم بحكم الاسلام في شبه الجزيرة [٣].

حالة الادب في ظل المرابطين:

اذا كان المرابطون قوم جهاد ومرابطة فانهم لم يهملوا الجوانب الأخرى في حياة المجتمع الاندلسي ومنها جانب الثقافة والادب، فقد استمرت الحركة العلمية والادبية في عصرهم على ما كانت عليه في عصر الطوائف من ازدهار وتقدم في شتى صنوف العلم والادب وظهر العلماء من كل من الرجال والنساء كتابا ومؤلفين وشعراء وناثرين ومن الاعلام في ميدان التأليف.." ابن بسام الشنتريني (٥٤٢)هـ صاحب كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ومنهم أبو محمد عبد الله بن ابراهيم الحجاري صاحب كتاب المسهب..." [٤] وكذلك ابن بشكوال وابن اضحى وابن سعيد وابن رشد وابن باجه. وغيرهم من الادباء والشعراء المشهورين في عصر المرابطين ويذكر منهم " ....أبن خفاجه وابن الزقاق والاعمى التطيلي وابن بقي...

وان الموشح بلغ الذروة وان الزجل على يد ابن قزمان اكتمل صورة وموضوعا.."[٥]. أما النثر وبصورة خاصة النثر الجهادي ـ موضوع بحثنا ـ فانه يشغل مساحة واسعة من اثار الادباء وصفحات المؤلفين لكتب الادب وموسوعات الثقافة الاندلسية مما جعل المؤرخين يعنون بهذه الآثار النثرية ويتوقفون عند التعريف بمشاهير الكتاب والناشرين مع ذكر نماذج عديدة من رسائلهم في الموضوعات المتنوعة التي احتل الجهاد فيها مكان الصدارة مما دفع احد مؤرخي الفترة الى التنويه بدور العلماء والادباء ومكانتهم قائلا: " ... فانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله، حتى أشبهت خلافة بني العباس في صدر دولتهم..." [٦] ثم ياتي الى الحديث عن اعيان الكتاب في دولة المرابطين فيقول : " واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق

اجتماعه في عصر من الاعصار، فممن كتب لامير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله ابو بكر المعروف بابن القصير، احد رجال الفصاحه والحائز قصب السبق في البلاغة ..." [٧] واذا كان اهتمام المرابطين بامر الكتابة والكتاب على هذا النحو فليس غريبا ان نجد النثر الجهادي يحتل مكان الصدارة في عصره ويستأثر بالعديد من النصوص النثرية التي كتبت بعلمهم وتوجيههم للتعبير عن الاغراض الجهادية والسياسية المختلفة ومن هنا فقد وجد البحث جملة وافرة من الوسائل الصادرة عن الديوان المرابطي في موضوعات الجهاد ومنها الفتوح وما يتعلق بها من تهنئة واستبشار وكذلك الاستطراخ وطلب العون وخطاب المتمردين او المهزومين امام الاعداء المتربصين الى جانب موضوعات اخرى.

وقد رأى البحث ان يبدأ برسائل الاستطراخ والنجدة بوصفها مقدمات لعبور المرابطين الى الاندلس ثم رسائل الفتوح والموضوعات الاخرى وفق تسلسل الاحداث في هذه الفترة [٨].

رسائل الاستصراخ وطلب النجدة:

يشكل موضوع الاستصراخ الركيزة الاولى التي أنطلق منها الجهاد المرابطي في الاندلس لإيقاف التدهور الذي كان نتيجة عجز أمراء الطوائف وضعفهم واستمرار الخلافات بينهم مع انشغالهم باللهو والترف على الرغم من شدة يقظة اعدائهم وتربصهم بهم وبامتهم الدوائر ، مما استدعى تحرك العلماء والفقهاء الائمة الى فداحة الخطب وخطورة السير في سبيل الغفلة والتواكل والضعف وكانت دعواتهم تؤكد على وجوب التوجه الى الموابطين المعروفين بحبهم للجهاد وتضحياتهم في سبيل اعلاء كلمة الله والمحافظة على بيضة الاسلام في شبه الجزيرة وفي كل مكان، وكان من ذلك الرسائل التي وجهت اليهم تستصرخ فيهم غيرة الاسلام وحمية الايمان ومناشدتهم باسم الاخوة الاسلامية والعقيدة الصحيحة، ويذكر ابن بسام من ذلك رسالة موجهه الى امير المسلمين بقلم الكاتب ابي عبد الله ابن ايمن [٩] مشيرا الى انها كتبت في وقت مبكر من دعوة المرابطين الى الاندلس: " لما كان نور الهدى - ايدك الله - دليلك وسبيل الخير سبيلك ووضحت في الصلاة معالمك،

ووقفت على الجهاد عزائمك - وضح العلم بانك لدعوة الاسلام اعز ناصر وعلى غزو الشرك اقدر قادر ، وجب ان تستدعي لما احاط بالجزيرة من بلاء.." (١٠)

وبعد هذه المقدمة المتضمنه للثناء على امير المسلمين وذكر صفاته ومآثره الاسلامية تأتي الرسالة الى الاغاثة والاستطراخ بذكر ما آلت اليه حالة البلاد من الضعف والتمزق وتسلط الاعداء وكثرة غاراتهم وعبثهم بالمسلمين وحرماتهم ومقدساتهم : " ... فيا لله ويا للمسلمين !! .. أبسطو هكذا بالحق الإفك؟ ويغلب التوحيد الشرك؟ ويظهر على الايمان الكفر ولا يكتنف هذه الملة النصر ؟الا ناصر لهذا الدين المهتضم؟ ولا حامي لما استبيح من الحرم !! وإنا لله على ما لحق عرشه من قل! وعزه من ذل فانها الرزيّة التي ليس فيها عزاء والبلية التى ليس مثلها بلاء ..." (١١) ونفهم من الفقرة التالية انه قد سبقت مخاطبة امير المسلمين ولكن الخطب قد ازداد واصبح ينذر باسوأ النتائج من ذل وظلم وعسف وتهجير وقتل واعتداء ثم تختتم الرسالة بالاشارة الى ان ما احتوته باسلوب الايجاز كان من ضرورة الموقف الحرج وسيقوم الشيخ الفقيه الواعظ بتفصيل ما اجمل فيها وهو الثقه في ما يقول ومحيط بالاوضاع ومؤتمن في التعبير عن الحالة الراهنة: " ... وكتابي هذا جملة : الشيخ الفقيه الواعظ يفصّلها ، ومشتمل على نكته هو يوضحها ويبينها، فأنه لما توّجه نحوك أحتسابا ، وتكلف المشقه اليك طالبا ثوابا عوّلت على بيانه ووثقت في عرض الحال عليك بفصاحة لسانه ، وانت بفضلك تستوعب ما تؤديه استيعاب المستوفي وتصغي الى ما ينهيه إصغاء الداعي.." (١٢).

ولاشك ان الاشارة الى الشيخ الفقيه الواعظ يلفت النظر الى اهمية الرسالة وخطورتها بما تحتويه من طلب العون والنجدة بأسم الاسلام ورباطه المقدس كما تؤكد في الوقت نفسه اهمية الفقهاء والعلماء ودورهم المهم في الدعوة الى وحدة الصف وجمع الكلمة وسعيهم الحثيث لتدارك الامور في الاندلس قبل فوات الوقت واستعصاء الحل، بل ان جملة من عبارات الرسالة تؤكد دور حاملها ومكانته فهو موضع ثقة وامانه ومحيط بجملة الاوضاع التي يعاني منها الاندلسي، ومما يأتي في هذا السياق من رسائل الإستغاثة والاستنجاد بالمرابطين، ويؤكد كذلك دور الفقهاء والعلماء والقضاة ، رسالة كتبها قاضي

سرقطة والجمهور فيها الى الامير ابي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين حين حاصرها ابن رذميرواستلهبا، وتعرض الرسالة الى جانب من حالة الشقاء والشدة مما يعاني منه الناس وترفع صوت الاستغاثة بما يثير الحمية ويبعث الحماس والقوة في النفس الابية المؤمنة:

" كتبنا ـ ايدك الله بتقواه ـ ووفقك لاشتراء ارضاه بمجاهدة عداه، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك عن حال قد عظم بلاؤها، وادلهمت ضراؤها، فنحن في كرب وجهد اليم قد حل العزاء والخطب واظلنا الهلاك والعطب، فيا غوثاه ثم يا غوثاه الى الله دعوة من دعاه.. " (١٣). ثم تمضي الرسالة في عرض جوانب من سوء الحالة وتدهورها وما بنتاب الناس من قتل ومطاردة وتجويع وتعذيب دون تفريق بين مراة ورجل او صغير او كبير : " ياحسرتا على حفرة قد اشفت على شفا الهلاك طالما عمرت، بالايمان وازدهت باقامة الصلوات وتلاوة القرآن، ترجع مراتع للصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة الاوثان، وياويلاه على مسجد جامعها المكرم، وقد كان مأنوسا بتلاوة القرآن المعظم تطؤه الفساق بذميم أقدامها ويؤملون ان يدنسوه بقبيح اثامها ويعمروه بعبادة اصنامها ويتخذوه مواطن لخنازيرها ومواطن لخمراتها ومواخيرها ثم ياحسرتاه على نسوة مكنونات عذارى يعدن في اوثاق الاسارى وعلى رجال اضحوا حيارى، بل هم سكارى وما هم بسكارى ولكن الكرب الذي دهمهم شديد والضر الذي مسهم عظيم جهيد من حذرهم على بنيات قد كنّ من الستر بيان الوجوه ان يروا فيهن السوء والمكروه وقد كنّ لايبدون للنظار فالان حان ان يبرزن للكفار وعلى صبية قد كانوا نشأوا في حجور الايمان يصيرون في عبيد الاوثان..." (١٤). وازاء هذه الحالة المؤلمة نجد الرسالة تجنح الى العتاب الذي لايخلو من شدة على تقاعس الامير المرابطي عن النصرة والاغاثة حين كان على مقربة من المدينة المحتلة وقد كان اهلها يتوقعون نصرتة ولكن انثنى عنها مما زاد وفي محنة الناس وبلائهم وشدة الخطب عليهم: " وما كان الا ان وصلت وصل الله برك بتقواه ـ على مقربة من هذه الحضرة ونحن نأمل منك بحول الله اسباب النصرة بتلك العساكر التي اقر العيون بهاؤها وسر النفوس زهاؤها فسرعان ما انثنيت وما انتهيت وارعويت، وما ادنيت خاياعن اللقاء

ناكصا على عقبيك عن الاعداء فما اوليتنا غناء بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء وتناهت بنا الحال جهدا والتواء بل اذللت الاسلام والمسلمين واجترأت فضيحة الدنيا والدين " [١٥].

وتتوالى هذه العبارات وامثالها معبرة عن اقصى درجات الامتحان وصنوف البلاء وتوازن بين موقف القائد في اعراضه عن النصرة وبين موقف الاعداء في اندفاعهم وجرأتهم على المقدسات والحرمات مع ان القائد يرفع شعار الاسلام والجهاد ويقود جيشا مجاهدا عرف بسرعة النجدة وشدة الحرص على الاسلام واهله ومثله العليا غير مكترث بالتضحيات مهما عظمت غير ان الكاتب لايمضي طويلا في اسلوب العتاب اذ يلين ويهدأ مثيرا الحمية مؤكدا على خطورة سرقطة لا على نفسها واهلها فقط وانما على اهل الاندلس وخاصة الحواضر المحيطة بها ويحذر من سقوطها الذي ينذر بمشكلات معقدة واخطار جسيمة:

" فما هذا الجبن والفزع، وما هذا الهلع والجزع ، بل ما هذا العار والضيع؟ اتحسبون يا معشر المرابطين واخواننا في ذات الله المؤمنين ان سبق على سرقطة القدر بما يتوقع منه المحذور والكدر انكم تبلعون بعد ريقا تجدوه في سائر بلاد الاندلس ــ عصمها الله ــ مسلكا من النجاة او طريقا!.كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاءا وفرارا وليخرجنكم منها دارا قدارا ؛ فسرقطة ـ حرسها الله ـ هي السد الذي ان فتق! فتقت بعده أسداد، والبلد الذي اذا استبيح لاعداء الله استبيحت له اقطار وبلاد " [١٦].

وبعد ان يكون الكاتب قد مهّد للملاطفة والملانية بما سبق من عبارات تبين خطورة الموقف وضرورة الاسراع الى النجدة والغوث؛ يعود الى خطاب المرابطين مثير الحمية والهمة ومذكرا بمكانتهم وجهادهم معتمدا اسلوب الترغيب والترهيب " فالان ايها الامير الأجّل هذه ابوب الجنة قد فتحت، واعلام الفتح قد اطلعت، فالمنية ولا الدنية والنار ولاالعار، فاين النفوس الابية واين الانفة والحمية واين الهمم المرابطية فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها وامتضاء جدها واجتهادها وملاقاة اعداء الله وجهادها فان حزب الله هم الغالبون " [١٧]. ثم تؤكد الرسالة على وجوب الاستجابة بسرعة حيث لا مجال للتردد : " ولاتتاخر كيف كان طرفة عين فالامر اضيق والحال ازهق فعد بنا عن المطل والتسويف قبل وقوع المكروه والمخوف، والا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا؟؟ واموالنا والمسؤولون

عن صبيتنا وأطفالنا لأحجامكم عن أعدانيا وتثبيطكم عن إجابة تدانيا ... " [١٨]. وبعد المزيد من هذه العبارات وأمثالها في التحذير والإنذار تختتم الرسالة بآية كريمة من آيات القتال، وبهذا تكون من الرسائل الصريحة المهمة في قوة وصراحة عباراتها واعتماد الشدة واللين والغطة والذكرى.

ومن نماذج هذا النثر رسالة كتبها عن أهل قرطبة الكاتب أبو بكر بن عبد العزيز [١٩] الى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على الأندلس بعد والده ، وفي الرسالة يستصرخ الماتب أبا الحسن علي ويثير حميته الإسلامية ونخوته الجهادية التي عرف بها مغتنما كلامه بالثناء عليه وذكر ما أمتاز به من الفضائل والمكارم وإعلان الطاعة له بأسم أهل قرطبة طاعة تامة، ثم يعرج عن ذكر حال الناس وقد أشتد عليهم الكرب وضاقت بهم السبل ولم يبق لهم من سبيل إلا الإنابة الى الله ثم اللواذ بكنف الأمير المجاهد، فقد أحاط بهم العدو وشدو عليهم الخناق وأوقع بهم أسراً وقتلاً وتجويعاً ومحاصرة " وهذا العدو المجاور لنا ـ قصمه الله ـ قد أحرقنا بشررة من ناره، وأغرقنا في قطرة من غماره، فكيف نكون وقد أشجانا بشؤ وبقرب برد، ورمانا بضرم متقد، ونحن نستقبل منه جهدا، ول نطيق له بغير الله دفعاً وترقب أزفة تترك أنوار الإسلام ـ والله الكافي ـ كاسفة ولا تجد لها من دون الله كاشفة، بل هو القادر على أن يصرف إلينا نظر أمير المسلمين فيسهل لنا مقاصدها ومسالكها، ويرد عنا محاذيرها ومهالكها؛ وتفسير هذه المقدمة .. " [٢٠].

ثم يأخذ الكاتب في تفصيل ما حدث من أهوال ومشقات بما أوقعه الأعداء في الناس وحرماتهم وأموالهم وأنفسهم وما أنتهكوه من حرمات المساجد وما نهبوه من أموال الناس حتى صار المسلمون بين قتيل وأسير أو هارب مذعور نيذر و يستنجد ويستغيث ويستصرخ ؛ وكان من المستصرخين والى بلنسيه الذي توجه إليهم، ولكن العدو كان قد سبقه. وبعد وقوع الكارثة وصل اليهم كتاب واليهم الذي قدم من سفره فكان قدومه تجديداً لآمالهم وبعثاً لشيء من الثقة في نفوسهم سائلين الله أن يعينه على إنجادهم ومدّ يدالعون اليهم ولسان حالهم ومقالهم يقول: " وإنا لننظر في نظرة الجميل وجوابه الواضح السبيل؛ ما يقر النفوس في قرارها، ويعيد الآمال في النجاة بعد قرارها وهو ـ أيده الله ـ يذكر ما أخذه

علينا من العهد المسؤول في النصح المبذول والصدق المقبول، فرأينا ان لانكتم ما يجب ابداؤه ولانمسك ما يلزم اداؤه، وهو المسؤول - جلت قدرته - ان يرفع بالتقوى قدره ويشرح لهذه الشكوى صدره ويجزيه عن جوانب ألانها وبسطها، وندا‌ها زانها الرفق واقسطها افضل ما يجزي به اماما تواضع لله فحببهُ الى خلقه واعانه على حقه لارب غيره والسلام " (٢١).

رسائل الجهاد والفتوح:

تشغل رسائل الفتوح جانبا مهما من موضوعات النثر الجهادي في عصر المرابطين، وتعالج ما تحقق على ايدي المرابطين من فتوح او استرداد مدن، استولى عليها الاسبان ، وفي ذخيرة ابن بسام نصوص مختارة من رسائل طويلة في فتح مدن معروفة واخراج الاسبان منها بعد ايقاع الهزيمة بهم ومن ذلك رسالة كتبها ابو بكر بن القصيرة (٢٢) مسجلا فيها النصر في اولى معارك المرابطين مع الاسبان في الاندلس وقد بدأها بقوله : " كتبت' صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب وقد اعز الله الدين واظهر المسلمين وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين ؛ بما يسر الله من فضله في أمسه وسناه وقدره، سبحانه وقضاه من هزيمة أذفونش بن فردلند أصلاه الله - ان كان طاح - الجحيم ، ولا أعدمه - ان كان امهل - العيش الذميم، كما قنعه الخزي العظيم، وإيتان القتل على رجاله وحماته "ثم تمضي الرسالة محتوية اشارات تاريخية تدل على انها كتبت بعد وقعت الزلامة الشهيرة (٢٣) بين المرابطين وبعض امراء الطوائف من جهة، والاسبان بقيادة اذفونس السادس ابن فردلند من جهة اخرى؛ وفيها كذلك ما يدل على انها مقدمة موجزة وضعت المعركة ونتيجتها امام الناس للاسراع بنقل بشرى النصر اليهم، ثم تبع ذلك كتاب اخر - كما يشير ابن بسام - يشرح جمل هذا الفتح وتفضيله ثم يذكر فصلا من تلك الفصول قائلا: " وقد علم ما كنا قبل مع عدو الله أذفونش بن فردلند - قصمه الله - من تطأطؤنا واستعلائه، وتقامتنا وانتمائه، وان لم نجد لدائه دواء، ولاليلانه انقضاء، ولالمدة الامتحان به فناء الى ان سنى الله تعالى من استطراخ امير المسلمين وناصر الدين ابي يعقوب يوسف

بن تاشفين؛ معقلي الأحمى - ايده الله - ما سنى وادنى من تأي دياره، وشحط مزاره ما ادنى، فلم أزل اصل بيني وبينه الاسباب واستفتح الى ما كنت' أتخيل من نصره الابواب، الى ان ارتفعت الموانع قبله وابتهجت السبل القصية له، ثم اجاز على بركة الله دعوته - يريش ويبري وصار بعد' قدما يخلق ويعزي ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري وانا انجده بوسعي واسعده على حسب ما يطيقه ذرعي " [٢٤] ويبدو من عبارات الرسالة أنها على لسان المعتمد لمكانته وصلته بأمراء الاندلس الى جانب اسهامه مع امير المسلمين في الجهاد والفتح.

وتتضمن الرسالة في فصولها التالية عرضا لجوانب وصور من تلك المعركة الفاصلة وما حصل فيها من استبسال المجاهدين وبذلهم المهج والارواح في صف واحد وقيادة واحدة لإعلاء كلمة الله وتطهير الارض من دنس المغرين من اسبان وغيرهم ويقول الكاتب من ذلك : " فتواقف قليلا الجمعان وتجاول مليا الفريقان وللسيوف حكمها، ومن الحتوف حدها المفهوم ورسمها، فلم يلبث اعداء الله ان ولوا الادبار، واستصرخوا الفرار، واتبعتهم خيل المسلمين - نصرهم الله - بقية اليوم والليلة تقتلهم من كل غور ونجد " [٢٥]. وبعد ان يفصل فيما حل بجند الاذفونش من قتل وتشريد وملاحقة واسر يختم ابن بسام الرسالة بفصل - كما يسميه - يتضمن ايجاز نتيجة المعركة وما تحقق للإسلام والمسلمين من نصر وظفر مع قلة خسائرهم وفداحة خسائر عدوهم فيقول: " ولم يصب بحمد الله من المسلمين - وقرهم الله - على هول المقام وشدة الاقتحام كثير، ولامات من اعلامهم تحت تلك الجولة الا عدد يسير؛ فان فكان اذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بددا، فسيموت لامحالة اسفا وكمدا، ونحمد الله على مايسره من هذا الفتح الجليل وسناه " [٢٦].

ومن رسائل الفتح التي كتبت في ظل المرابطين مسجلة جهودهم وجهادهم في استعادة المدن الساقطة بايدي الاسبان رسالة كتبها أبو الفضل بن شرف [٢٧] في فتح بلنسية، وقد اورد ابن بسام فصولا منها يذكر في مقدمتها أسباب النصر وأدواته الحقيقية ومنها العزم الاكيد والتصميم القاطع على الجهاد إبتغاء مرضاة الله تعالى إعزازا للدين وحرصا على رفع راية الاسلام واعلاء كلمته ضد الشرك واهله؛ يقول من ذلك :-

" من ذكر ـ أعزك الله ـ عهدك الكريـم والتزامه، وأبصر مجدك العميم وانتظامـه، ووضع نفسه حيث وضعتها ماضي الذمام، وانزلهـا منـك حيث انزلتها تلك الايـام الكـرام وعلم ان ربطك مبرم الشد، وخبطك محكم العقد، وان وافاك اكبر من رضوى حسدا واكثر من ضرزى عبدا، تحظى بقدم العهد وتحظى بقدم الود، حتى زار الصفائح بالصحائف وباشر الكتائب بالكتب اللطائف وحيا لصلبان الاقلام تحت لسان الاعـلام حين الشرق وجه الدين فاسفر وزهق حزب الملحدين فنفر " [٢٧]. ويخص في ذكر هذه العبارات وامثالها الدالة على النصر بعد الهزيمة والعزة بعد الذل وعودة السلطان الاسلام وهزيمة الشرك على يد أمير المسلمين كما يفهم من عبارات الرسالة بإسباغ القاب الشجاعة والقوة والجهاد على قائد المعركة الذي اعاد للمسلمين مدينتهم ورفع اصوات التكبير والتهليل والتوحيد فيها بعد ان كادت النفوس ان تيأس واشرفت النفوس على الوهن والخور لولا ان فيض الله النصر على يده فكان ذلك حياة النفوس كادت تموت وهم غدت ضعيفة واهية : " فعل ـ اعزك الله ـ في فتح عم الله ببهجته قلوب المؤمنين وخص بالفضل أمير المسلمين [ناصر الدين]. ووفى به ضمانة، وأرجح بفخره واجره ميزانه، حتى افتدح بحسابه، ووسم بإعلامه بسعيد ايامه، دعا مانعه فأجاب وجلى عاتمه فإنجاب؛ فتح سالت تلاعه بماء النعمة، وحالت سوامه في ضمانة العصمة " [٢٨]. ثم يذكر ابن بسام جزءا آخر من الرسالة في بضعة سطور لأبتكار معانيها تخرج عن معاني السطور السابقة في التغني بالنصر والتحدث بنعمة الله فيه، ينتقل بعدها الى ذكر جملة من أشعار أبي الفضل بن شرف معلقا عليها ولعل الباحث بعد هذا يستطيع أن يستخلص حس الكاتب على اظهار دور امير المسلمين في تحقيق الانتصار تلو الانتصار في كل مرة يدخل فيها الاندلس او يكلف قواده أو امراؤه بالتوجيه الى اماكن ساقطة بأيدي الاسبان أو مهددة بالسقوط في حال ضعف ملوك الطوائف وانقسامهم وتوطؤ عدد منهم مع اعدائهم على أبنا جلدتهم، مما جعل تحرك أمير المسلمين ومواصلة الجهاد بمثابة درع وفي الاندلس وحماها وآخر السقوط الى فترة من الزمن الى جانب ما استطاع تحقيقه من جمع كلمة ملوك الطوائف واوالي حين.

من هنا كان تأكيد الرسائل على هذا الدور والاشارة به ترجمة حية اواقع المرابطين وشهادات صدق عبرت عن شعور عميق بأمتنان الاندلسيين ورضاهم عن مواقفهم وجهادهم في ساعات الشدة والحرج وحالات الضعف والتواكل والانقسام.

وبهذا تنطق جملة وافرة من الرسائل سوى ما ذكرناه أو أشرنا اليه، ومن ذلك ما سجله كاتب آخر للمرابطين هو ابو محمد عبد المجيد بن عبدون [٢٩]. في اكثر من رسالة ومنها رسالة تثنى فيها بالنصر وأثنى على دور المرابطين في تحقيق النصر المؤزر والعزة والمذمة وقد كتبها على لسان الامير سير بن أبي بكر بن تاشفين يخبر فيها بفتح مدينة شنترين، على يديه مبشرا أمير المسلمين علي بن يوسف حيث يقول : " أدام الله أمير المسلمين وناصر الدين أبا الحسن علي بن يوسف بن تاشفين خافقة بنصر الدين أعلامه، نافذة في السبعة الاقاليم أقلامه من داخل مدينة شنترين، وقد فتحها الله بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين، والحمد لله رب العالمين حمدا يستغرق الالفاظ الشارحة معناه ويسبق الالفاظ الطامحة أدناه ولايرد وجهه نكوص، ولايحد كنهه تخصيص، ولايحزره بقبض ولا ببسط، مثال ولا تخمين، ولاتحصره بخط ولابعقد شمال ولايمين " [٣٠] وتتوالى عبارات هذه المقدمة متضمنة الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم وبيان قدرة الله تعالى وتعزمه في الكون وافتقار كل شيء اليه وضعفه أزاء قوته التي لاتغلب؛ يأتي بعد ذلك الى بشرى الفتح وظهور جيش الايمان على الكفر فيقول : " وأظهر العزيز ـ عزت أسماؤه وجلت كبرياؤه دينه على جميع الأديان ، على رغم من الصلبان، ووقم من الاوثان وأنجز لنا تعالى وعده ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده، وجمع في هذه الجزيرة شمل الاسلام بعد انصرامه وانبتاته، وقطع نميل الاشراك بعد انتصابه وثباته " [٣١].

وبعد أن يصف قلعة المدينة بالمذمة والتحصين وشدة بأس المحصنين بها المحتلين لها وشدتهم على اهلها، يذكر أن جنود الايمان استخاروا الله في الاقدام على فتحها متجاوزين ما يكتف ذلك من صعاب ومشاق، ثم هجموا عليها كأنهم ليوث ـ تهجم على فرائسها باذلين المهج في سبيل الله طلبا لجنته وابتغاء لمرضاته حتى أمتلأت صدور الاعداء على الرغم من كثرتهم؛ خوفا ورعبا وكانت المطاولة والمنازلة مع الاقدام والاندفاع

نحو العدو. " أستخرنا الله تعالى على صدها وضرعنا الى الله في تسهيل قصدها وسألناه أن لايكلنا الى نفوسنا، وإن كانت في صيانة ديانته مبذولة، وعلى المكروه والمحبوب في ذاته محمولة، فقصدنا إليها، وهجمنا هجوم الردى عليها في وقت أنسدت فيه ابواب السبل وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل، والدهرقد كشر عن انيابه العصل، وقام في الوصول والسيول على اثبت رجل، فنزلنا بساحة القوم، فساء صباحهم ذلك اليوم، فلم نزل نصاولهم مصاولة المحتسب المؤتجر ونطاولهم مطاولة المرتقب المنتظر، ونشن الغارات على جميع الجهات " [٣٢]. ويلاحظ المتأمل في عبارات هذا الجزء من الرسالة اشراك نفسه واثبات دوره في هذه المعركة فهو مقاتل مع المقاتلين وليس كاتبا يصف ما رأى أو سمع فقط.

كما يلاحظ حرصه على الربط بين عملية الجهاد والفتح والعقيدة الاسلامية بتأكيده على مبدأ الهدف والوسيلة اللذين يتصلان بهدف مرضاة الله واعلاء كلمته ثم يعرج الكاتب في الجزء التالي على ذكر اشارات دالة على خذلان الاعداء وتفريق شملهم واتيان القتل على اكثرهم حتى لم يبقَ منهم سوى القليل الذي لاقيمة له، أما من طلب الامان واعلن الخضوع والانقياد فقد وهب ما أراد عملا بأحكام الشرع الحنيف في المحافظة على العهد وقبول استجارة المستجير.

ويختم أبن عبدون رسالته الطويلة المهمة بوصف القلعة وما إحتوته من اسباب العيش الرغيد بتوفر الماء والشجر والزهر والثمر مع اعتدال هواء بالاضافة الى قوتها ومنعتها التى اعيت في الماضي عظيم القياصر فارتد عنها بجيوشه الكثيرة وعدده الموفورة لكن الله مكن المسلمين من ناصيتها ورفع راية الاسلام فيها بجنود مستمدة النصر والقوة والعزم والتضحية والثبات منه تعالى : " وهذه القلعة التي أنتهينا الى قرارها واستولينا على اقطارها، أرحب المدن امدا للعيون واخصبها بلدا في السنين لايريمها الخصب ولايتخطاها، ولايرومها الجدب ولايتعاطاها، فروعها فوق الثريا ـ شامخة وعروقها تحت الثرى راسخة ، تباهي بأزهارها نجوم السما وتناجي بأسرارها اذن الجوزاء . أعيت على عظيم القياصرة فنازلها بأكثر من القطر عددا وحاولتها بأوفر من البحر مددا " [٣٣].

رسائل الدعوة الى التعاون والثبات:

يسهم النثر الجهادي في عصر المرابطين في اسناد جهود الفتح والاسترداد بالدعوة الى جمع الكلمة ورص الصفوف والتعاون على الخير والبر للوقوف صفا واحدا في وجه العدو الغاشم المتربص بالاسلام واهله في شبه الجزيرة الاندلسية، وبهذا جاءت رسائل متضمنة لهذه المعاني ويفهم منها بصورة عامة ان امير المسلمين كان يبعث بها عند اشتداد الاختلاف والصراع بين ملوك الطوائف، ناصحا وموجها وداعيا الى استنهاض الهمم وشحذ العزائم وتناسي الخلافات وتذكير كل فئة في المجتمع بمسؤلياتها الجسيمة وبصورة خاصة فئة العلماء والفقهاء حيث يلزموا ان يبادروا الى العمل على رأب الصدع وجمع الشمل بما أوتو من حكمة ودرايه وفهم ونقرأ في ذلك رسالة كتبها أبو القاسم ابن الجد [٣٤] عن أمير المسلمين علي أبن يوسف الى اهل أشبيليةن، يقول في اولها: " كتابنا ـ أبقاكم الله ـ وعصمكم بتقواه، ويسركم من الاتفاق والإئتلاف لما يرضاه، وجنبكم من اسباب الشقاق والخلاف ما يسخطه وينعاه " [٣٥]. ثم يذكر الكاتب ضرورة التناصح والبعد عن كل ما يؤدي الى التفرق والتباعد، ويحمل الفقهاء والعلماء وسائر صلحاء الامة وعقلائها مسؤلية ذلك الواجب الشرعي المقدس في الدعوة الى الالفة والتعاون والمودة : " وفي هذا على فقهائكم وصلحائكم مطعن بين ومغمز لايرضله مؤمن دين ، فهلا سعوا في اصلاح ذات البين سعي الصالحين وجروا في إبطال أعمال المفسدين " [٣٦]. ويشير خلال ذلك الى أن الامير قد كتب اليهم اعذارا وإبراء للذمة، وإنفاذا لواجب النصيحة بين المسلمين، وما على أهل اشبيلية وغيرهم إلاأن يبادروا الى أخذ الحيطة والحذر والاستعداد وبذل الجهد لتحقيق وحدة الصف لقمع العدو وصده، ثم تختم الرسالة بالاشارة الى والي اشبيلية من قبله وهو أخوه ابو اسحق ابراهيم ابن يوسف " أبقاه الله وادام عزه وتقواه ، وأعلموا أن يده فيكم كيدنا، ومشهده كمشهدنا فقفوا عند ما يأمركم به ويدعوكم اليه، ولاتختلفوا في أمر من الامور عليه، وانقادوا أسلس قياد لحكمه وعزمه، ولاتقيموا على ثبح عناد بين حده ورسمه والله تعالى يفيء بكم لى الحسنى ويسركم الى مافيه صلاح الدين والدنيا بقدرته " [٣٧].

ويدخل في هذا النوع ما كتبه أبو القاسم ابن الجد نفسه عن أمير المسلمين الى أهل غرناطة تدور حول المعاني السابقة وتؤكد بصورة خاصة على العلاقة بين اهل غرناطة ووليهم وتحثهم على الالتفاف حوله وتحذر من التألب عليه، وتفتح بمثل ماأفتتحت به الرسائل السابقة أو قريبا منه : " كتابنا ـ عصمكم الله بتقواه ـ ويسركم لما يرضاه، وجنبكم ما يسخطه وينعاه ، من حضرت مراكش ـ حرسها الله ـ يوم الجمعة التاسع عشر من شهر الصوم المعظم " [٣٨]. ثم يبسط القول بعد هذا في أمور بدرت من أهل غرناطة ومواقف سجلت عليهم ويدعوهم الى التزام الحق وتحري الصواب والبعد عن الشغب والشقاق واتباع الهوى، وأن يضعوا أيديهم في أيدي اميرهم ليكون سعي الجميع مثمرا وجهدهم مباركا مؤيدا من الله تعالى ، كما يؤكد وجوب قيام كل فرد بواجبه وترك ما لايعنيه : " ولابد لكل عمل من أجل ولكل ولاية من غاية، ولن يسبق شيء أناة، وأذا أراد الله شيئا سناه وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لاتعلمون " وفقكم الله لما فيه صون اديانكم واعراضكم وسداد أنحائكم واغراضكم بمنه " [٣٩] بهذه العبارات الدالة المعبرة يختم الكاتب رسالته مذكرا بالله تعالى وآياته داعيا لاهل غرناطة بالتوفيق والتسديد لما فيه خير الدنيا والاخرة، والى جانب مخاطبة الجماعة يخاطب الامير فردا معينا، مذكرا اياه بتمديد العهد وتحقيق العدل والاستقامة على طريق الرشاد والهدى وذلك فيما ورد في رسالة موجزة موجهة الى ابي محمد عبد الله أبن فاطمة [٤٠]، قائلا : " كتابنا ـ أطال الله في طاعته عمرك، وأعز بتقواه قدرك، وشد فيما تتولاه أزرك، وعضد بالتوفيق والتسديد أمرك " [٤١] ثم يذكره بالعهد الذي أخذه عليه في أقامة العدل خاصة وانه ممن تكفيه الاشارة وتغنيه اللمحة لطول تجربته وعمق درايته فهو أهل لان يقيم العدل بين الجميع دون تفريق ويفتح أبوابه لاهل الحاجات والمظالم مع توطئة أكنافه ودماثة أخلاقه وسعة صدره وطول صبره وأناته، ثم يختم الرسالة بامر صريح بوجوب محاسبة كل مقصر وايقاف كل متجاوز عند حده: " ومن سبب عليه من عملك زيادة أو خرق في أمرها عادة أوغير رسما أوبدل حكما، أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما، فاعز له عن عمله وعاقبه في بدنه والزمه رد ما أخذ تعديا إلى أهله، واجعله نكالا لغيره، حتى لايقدم أحد منهم على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى ولي تسديدك، والملئ بعضدك وتاييدك، لاإله إلاهو " [٤٢].

مخاطبـــة المتمردين :-

ويسهم النثر الجهادي في مخاطبة المتمردين الخارجين سواء أكانوا من أمـراء الاندلس وقواد الجيوش أو من الاعداء المتربصين بالمدن والحواضر الاندلسية، وقد كـانت هـذه الرسـائل بمثابة إعذار وإنذار لمن خرج على الطاعة أيا كان. ومن ذلك رسالة كتبها ابو بكر بن القصـيرة عن امير المسلمين الى المنصور صاحب قلعة حماد، ويبدو منها أن الاخير كـان قد أرسـل الـى الأمير كتابا لم يحسن التعبير فيه أو أنه لـم يوفق فـي تفسيرموقفهبخروجه عـن الطاعـة وقيامـه ببعض مايخل بذلك مع خلو الافتتاح من تقديم ممايدل على الغضب والتوتر: " وصل كتابك الذي أنفذته من وادي منى، صادرا عن الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك وأجحفت فيها بطارفك وتلادك، وأخفقت فيها من مطلبك ومرادك فوقفنا على معانيه وعرفنا المصرخ بـه والمشـار اليـه فيه، ووجدناك تجعل سينك حسنا، وفكرك معروفا وخلافك صوابا بينا " (٤٣).

هذه المقدمة المفندة لكل ما ورد في رسالة المنصور وإن كانت مجملة، ولكنها فيما يبدو قد ابطلت حجج الوالي ومسوغاته، كما ان عباراتها مـاتزال معتدلـة متزنـة، بعيـدة عـن التهديـد الوعيد خالية من اية سمة للشدة والقسوة وذلك خلافا لما يتوقع من مخاطبـة متمـرد مخـالف، بـل إن عددا من عباراتها يميل الى الملاينة والمناشدة بالتذكير بأمور ومواقف كان المخاطب مخطئـا فيها بصورة واضحة لاتقبل الجدل: " وهنا نحن ننشدك الله الذي لاتقوم والارض الإبـامره؛ ألـم تكن عندما نزغ الشيطان بينك وبين فلان، وتفاقم الشنان، وقـد توفرنـا علـى مـا كـان مـن إقـلاق وتأخرنا عما كانت النسبة نستقدم اليه من بدار واستباق ولـم تمد الجهـة حق امدادهـا، ولاكثرنـا وفق ما كان يلزم من جماهير اعدادها " (٤٤).

وإذ تمضي الرسالة على هذا النهج من التذكير والتبصير بالحجة والدليل، يبدو فـي اسلوبها بعد ذلك شيء من الشدة التي لاتصل الى حد القسوة والتهديد أو الوعيد أو الاتهام، وإنما تخرج ذلـك بالتـذكير بمواقف كانت من الاميـر وأخرى كانت من تأليـب الخصـوم وشراء ضمائر ضعاف النفوس بالمال والعطاء، ثم تختم الرسالة بالتخويف من الله الذي لا تخفى عليه خافية. " وتمنـح أهل العشرات مئين واهل المئين ألافا، كل ذلك تعتضد بهم وتعتمـد علـى تعصبهـم، وتعتقد انهـم جنتك من المحاذير ورحماك من المقادير، وتذهل عما في الغيب من أحكام العزيز القدير " (٤٥).

ونلاحظ تغيرا في لهجة الخطاب بالنسبة لمتمرد آخر بحسب الموقف وما يتطلبه من شدة أو لين حيث تجنح الى الشدة عند عظم الجرم وضخامة التقصير خاصة اذا كان التقصير من جماعة وليس من فرد واحد وذلك على نحو من نقرأ في رسالة أبي بكر بن القصيرة على لسان أمير المسلمين وناصر الذين الى طائفة متقمة يقول فيها : " أما بعد : يا أمة لاتعقل رشدها ولاتجزي الى ماتقتضيه نعم الله عندها، ولاتقلع عن أذى تفشيه قربا وبعدا جهدها، فإنكم لاترعون لجار ولا لغيره حرقة ولا ترقبون في مؤمن إلاولا ذمة، قد اعماكم عن مصالحكم الاشر، وأضلكم ضلالا بعيدا البطر، ونبذتم المعروف وراء ظهوركم، واتيتم بما ينكر من ذلك، مقتديا صغيركم بكبيركم، وخاملكم بمشهوركم " [٤٦] ويتضح من هذه المقدمة ان الخطاب لجماعة وليس لفرد، مما يرجح أن يكون المخاطبون متمردين متعدين على الناس في صور عديدة مما اقتضى أن يكون اسلوب الرسالة منذ بدايتها شديدا قاسيا ويحمل في طياته التهديد والوعيد مذكرا باعمال وتصرفات لاتتم عن تعقل واتزان، ولا تصدر عن شعور بالمصلحة العامة او الشخصية، والرسالة تعتمد مع ذلك معاني القرآن الكريم في اهل الضلال والفساد ودور الشيطان في إغوائهم ومدهم بأساليب الغواية، حتى إذا أوفى بهم على شفا الهاوية تبرأ منهم وأعلن قطع صلته بهم : " وما نرى الإ أن الله قد شاء مسخكم، وأراد نسخكم، فسلط عليكم الشيطان الرجيم يغركم ويغويكم، ويزين لكم قبائح معاصيكم وكأنكم به وقد نكص على عقبية عنكم، وقال أني بريء منكم وترككم في صفقة خاسرة لاتستقيلونها أن لم تتوبوا في دنيا ولا آخرة " [٤٧]. وحين تقترب الرسالة من نهايتها تبلغ غاية شدتها ووعيدها بالانذار الصريح والوعيد الشديد والدعوة الى التوبة والانابة بلاقلاع عن سلوك سبل الضلال، والإ فإن النتيجة معروفة حيث لاتبقى لكم حجة ولايحول بينكم وبين العقاب شفيع، ثم تبين الرسالة وجه التوبة والانابة بإرجاع الحق الى نصابه مع الاقلاع عن كل ذنب أو جريرة : " وحسبنا هذا انذار لكم واعذار قبلكم، فتوبوا وانيبوا واقلعوا وانزعوا، وافتضوا من نفوسكم كل من وترتموه وأنصفوا جميع من ظلمتوه وغششتموه ولاتستطيلوا على أحد بعد ولايكن لكم إلى أذاه صدر ولا ورد، وإلاعاجلكم من عقوبتنا ما يجعلكم مثلا سائر وحديثا عابرا " [٤٨]. ثم تختم الرسالة بالدعوة الى تقوى الله في النفس والأهل والبعد عن الغرور والطيش اللذين لا يفضيان الا إلى تزيين المعاصي وتحسين

المقابح وشماتة الاعداء وفي هذا كله ذكرى وتبصرة لمن يريد أن يقدر أمره ويتدارك تقصيره ولاحجة له بعد ذلك أبدا: " فاتقوا الله في أنفسكم واهاليكم، واياكم والاغترار فإنه يورطكم فيما يرديكم، ويزين لكم قبائح معاصيكم ويسوقكم الى ما تشمت به أعاديكم وكفى بهذا تبصرة وتذكرة ليست لكم بعدها حجة ولامعذرة وما توفيقي إلا بالله " [٤٩]. وبهذا تكون الرسالة قد التزمت أسلوب الدعوة الصحيحة القائمة على الشدة واللين والترغيب والترهيب بحسب المخاطب وما يحتاجه إليه من أساليب النصح والارشاد والتقويم الايجابي.

خصائص فتيـــــه:-

يمكن القول بأن النثر الادبي الفني في موضوعاته الديوانية والاخوية والوصفية.. يمتاز بسمات أدبية أوفر حظا من حيث الخصائص من تلك التي يمتاز بها النثر الجهادي وذلك لفرق ما بين الاثنتين إذ يكون الاهتمام في الاولى منصبا على العناية بالإسلوب وأفانين اتعبير الادبي الجميل المؤثر في حين يكون الاهتمام في النثر الجهادي مؤكدا على المضمون لتحقيق النصر بعد بذل الجهد في الصبر والمصابرة ولتثبيت معاني الوحدة وجمع الشمل ويبدو هذا واضحا لكل من يتأمل في هذا النثر ويتابع أساليب التعبير فيه، وذلك على الرغم من أن الكتاب الذين أسهموا فيه كانوا من مشاهير الادباء وكتاب النثر الفني في عصرهم ومن هنا كانت السمات التي سنؤشر على أبرزها واهمها واضحة في كتاباتهم، ويمكن القول أيضا أن دور أمراء المرابطين في تشجيع الادب ودعم الادباء كان له دور فاعل في أن يطبع النثر الجهادي بغير قليل من سمات التعبير الادبي الفني، وبهذا نستطيع القول أيضا بأن كتاب المرابطين واصحاب رسائل الجهاد قد فهموا مهمتهم حق الفهم وعملوا على تحقيق الهدف المنشود من خلال رسائلهم التي كتبوها على السنة أمراء المرابطين أو وجهوها اليهم، وبهذا جاءت أساليب التعبير في هذا النثر معبرة عن عناية أدبية فنية تدل على ذوق ومهارة في تحقيق المضمون الجهادي مع الاخذ بأسباب الفن البياني والبديعي في الوقت نفسه وإذا ما راجعنا النصوص التي عوضنا قطعا منها وجدناها تتسم بسمات وخصائص تتعلق بالمضمون الى جانب سمات أخرى تتعلق بالشكل، فمن سمات الرسائل الجهادية في موضوعاتها؛ التعبير عن المعنى الاساس للجهاد بدوافعه وأهدافه ومنها معاني

الجهاد وافكاره المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة مثل معاني الجهاد والمرابطة، والصبر والمصابرة والدعوة الى الاتجاد والتعاون وجمع الشمل والحرص على طاعة أولى الأمر الذين يقودون حركة الجهاد ويرفعون لواءه، الى جانب الاهتمام بالرد على المتمردين وتبكيت المتخاذلين المتقاعدين عن الجهاد في تلك الظروف الحرجة. وفي جانب السمات المتعلقة بالشكل نلاحظ جملة من السمات الفنية الأدبية التي تتعلق ببناء الرسالة الجهادية وأسلوبها، وسلامة التعبير فيها من الضعف والوهن في إرتباط العبارات وأدائها المعاني المطلوبة، وكذلك ما أتسم به أسلوب هذه الرسالة من سمات البيان والبديع وما يتدرج تحتها من فنون، وقد يضاف الى هذا كله سمة السهولة والوضوح والبعد عن الغريب من الالفاظ والمبهم المضطرب أو المعضل من التعابير، وفيما يلي من الصفحات أهم ما أمكن الوقوف عليه من السمات الفنية على صعيدي المضمون والشكل من خلال النصوص النثرية التي سبق البحث في موضوعاتها.

المعاني والأفكار:-

جاءت معاني وأفكار النثر الجهادي منسجمة مع هدف الجهاد الذي رفع لواءه المرابطون في المغرب والاندلس، فضلا عن كونه المضمون الاساس لما سموا به أنفسهم وبهذا كانت الرسائل تعبر بصدق وإخلاص وعاطفة جياشة عن الحالة التي كان الاندلسيون يعانون منها في ظل ضعفهم وتفرقهم وأنقسامهم على أنفسهم، ونشير هنا الى الرسالة الطويلة التي كتبها الاديب أبو عبد الله محمد بن أيمن الى أمير المسلمين يوسف أبن تاشفين وقد كانت ثالث مناشدة له بالعبور الى الاندلس كما يذكر ابن بسام ويقول منها معبرا عن تدهور الحالة واستمرار الضعف والتخاذل: " ومن قبل هذا كنت' خاطبتك ـ أيدك الله ـ بالنازلة في مدينة قوريا ـ أعادها الله ـ وأنها مؤذنة الجزيرة بالخلاء ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى تخلصت القضية وتعجلت البلية وحصلت في يد العدو ـ قصمه الله ـ بدنية سرته وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع " (٥٠). ولايخفى ما تنطق به هذه العبارات من شدة الموقف والحاجة إلى الإنجاد والإغاثة قبل أن يستعصي الحل ويعظم الخطب، وهكذا نجد رسائل الاستصراخ وما توجبه على كل من يستطع

الإغاثة ويملك أسباب النصر ودواعيه معتمدا على الله عز وجل مستمدا القوة والنصر والعزة منه تعالى. وفي رسائل الجهاد والفتوح نجد ان المعاني والأفكار تدور حول التفاؤل والاستبشار والتهنئة والتطمين بعد فترة عصيبة من القلق والخوف والضيق، ومن هذه المعاني ما جاء في رسالة طويلة كتبها الاديب ابن عبدون عن الامير سير أحد أمراء المرابطين إلى الأمير يوسف بن تاشفين يعرض فيها حالة العدو وهو ينهزم امام جيش الايمان تاركا وراءه عددا كبيرا من القتلى والأسرى وكثيرا من العدة والعتاد: " ولما ضمهم لضيق ولاجه الحصار، وتضيقهم بتقريق أمواجه البدار، وأحاط بهم البلاء واستشاط عليهم بغضب الجبار القضاء، ولم يكن للحيل بأسهم سحر يتأمل ولا لورد ضرانهم صدر يؤمل، أختاروا الدنية على المنية، ورضوا بالاستسلام للعبودية واسلام الاهل والذرية، والسلامة من مدارج الكفن ومولج الجنن " (٥١).

ومن المعاني التي وردت في رسائل الجهاد المرابطي؛ مخاطبة المتمردين سواء كانوا اعداء إسبانيين أو أندلسيين، والاعذار إليهم بأساليب التذكير والتنبيه ثم بالانذار والتخويف بوجوب الانصياع والاقلاع عن شق عصا الطاعة والطمع في بلاد المسلمين. ونقرأ في ذلك رسالة طويلة من نثر أبي بكر بن القصيرة على لسان أمير المسلمين في مائة مقصية، تتضمن عبارات التهديد والوعيد مع التذكير بجمع الكلمة ورص الصف والبعد عن كل ما يدعو الى الضعف والتناحر الذي يطمع العدو ويدفعه للكيد والمكر واستغلال الفرص والتقع شتى الوسائل في الانقضاض على المسلمين وبلادهم ومن ذلك ما كتبه أبو بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين إلى صاحب قلعة حماد؛ وهي تحمل إسلوب التذكير بالخطأ والدعوة إلى الإقلاع عنه ووجوب أخذ العبرة والغظة مما حدث ويحدث على الساحة الأندلسية، ومنها قوله: " ونقضي لنفسك بفلج الخصام وتوليها الحجة البالغة في جميع الاحكام ولم تتأول أن وراء كل حجة أدليت بها ما يدحظها وإزاء كل دعوى أبرمتها ما نيقضها، وتلقاء كل شكوى حممتها ما يصرفها، واولا استكاف الجدال وإجتناب ترديد القيل والقال لنصصنا فصول كتابك أولا فأولا، وتقريناها تفاصيلا وجملا" (٥٢). وإذا ما كان الخطاب موجها إلى العدو المتربص فإن الرسالة تجنح الى الشدة والعنف في التهديد والوعيد مهما كانت قوة العدو في كثرة عدده وعدته أو قوته ومنعه ومن هذا قوله: " فتخيل حالك وقد أحاطت بك تلك الأجناد المتكاثفة والأعداء المترادفة، بحر

متلاطم موجه، بعيد ساحله، يرتمي في رعاله وكراديس أبطاله بموج لجي، قد مثلت عليه مضاعفة الأزراد ؛ يدل الازياد، فيغشاك منه ما يعيد بصرك وشلا وعزمك فشلا ويعيد باسك خورا " [٥٣].

وتتوالى الرسالة بعباراتها المؤثرة المستمدة من المعاني الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في أمور الجهاد والتضحية وطلب سلعة الله ـ الجنة ـ فيقول: " سلام مبرور كريم، مردد عميم على جميعكم، ورحمة الله وبركاته، فإن كتابنا إليكم ـ كتبكم الله ممن أثر الحق واتبع سنته وأدرع الحزم والبس جنته: وسمع القول وإتبع أحسنه، وحافظ على كتاب الذي يسره للذكرى وبينه، وجعلنا وإياكم ممن جعله بتقواه وزينه " [٥٤]: وهذه العبارات واضحة الصلة بالقرآن الكريم وتعابيره البليغة المعجزة القائمة على الدعاء من جمل معترضة متوالية تكاد تستغرق جزءا كبيرا مهما من الرسالة إلى جانب ماله صلة بأحاديث شريفة قريبة بمعانيها من المعاني التي يعرض لها الكاتب في رسالته. وذلك في قوله مثلا: وسمع القول وإتبع أحسنه. المأخوذ من القرآن الكريم في وصف المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول ويعملون به تقربا إلى الله وإبتغاء مرضاته؛ إلى جانب العبارات الاخرى التي تبدو عليها الصلة المباشرة بأدعية مأثورة صحيحة للرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا لم نمضينا مع عبارات أخرى في هذه الرسالة وفي غيرها من الرسائل الجهادية في هذه الفترة.

بنساء الرسالة الجهادية:

ونتظر في الرسالة الجهادية من حيث بناؤها في عصر المرابطين في بدئها وختامها، نجد انها تتشابه وتتوافق على الرغم من اختلاف موضوعاتها، حيث تبدأ غالبا بالدخول في الموضوع مباشرة مثل قولهم: كتابنا أو تبدأ بجملة دعائية مثل قولهم : أدام الله أمير المسلمين وناصر الدين [٥٥] وأوضح ما تبدو هذه الظاهرة في رسائل الفتوح حيث يتطلب الموقف عرض الموضوع بسرعة دون إبطاء لايصال بشرى بالفتح أوإسترداد مدينة مسلبة، وإذاكان الخطاب موجها إلى متمرد أو عدو غاصب فإن الكاتب يدخل في الموضوع بصورة مباشرة كذلك مع إختلاف لهجة الإفتتاح والخطاب بما يناسب الموقف فمن ذلك قول الكاتب: " يا أيه لاتعقل رشدها ولاتجري إلى ما تقتضيه نعم الله عندها " [٥٦] أو قوله: " أما بعد، يافرقة خبثت سرائرها وانتكثت مرائرها " [٥٧]، وحين يكون الموقف أشد توترا وأقسى على المخاطبين بما بدا منهم من تقصير أو إعراض أو هزيمة نجد أن البداية تشتد كذلك وتقسو بما تحمله من ألفاظ شديدة وعبارات قوية مثل الكاتب أبي عبد الله ابن ابي الخصال في رسالة: " أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة، إلام يزينكم الناقد ويردكم الفارس الواحد " [٥٨]. وهكذا نلاحظ أن الرسائل مهما أختلفت موضوعاتها وتنوعت أساليب بدئها وختامها فإنها تلتقي في سمة واحدة تبدو في اغفال المقدمة المتضمنة للبسملة والحمد والثناء والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم مما عرف في النثر عبر موضوعاته وأنواعه منذ عصر الإسلام، وربما أمكن تبرير ذلك بأن من أورده ابن بسام وغيره ليس إلا فصولا من الرسائل إختيرت بعد إهمال المقدمات المعروفة خاصة أن بعض الرسائل التي جاءت كاملة أو قريبة من تمام نصها نجدها قد ختمت بالخاتمة التقليدية المعروفة، ومن ذلك قول ابن القصيرة في ختام رسالة وردت على الجناح بهزيمة الطاغية: " والحمد لله على ما سنح حق حمده وهو أهل المزيد الذي لايرجي الإمن عنده " [٥٩]، وهذا ختام يناسب المقام تماما ويعبر عن المضمون الوارد في الرسالة وهو مضمون النصر والظفر بقوة الله وعونه، ويقرب من هذا ما ختمت به الرسالة الموجهة إلى اهل إحدى المدن ودعوتهم إلى جمع الكلمة وترجيدها الصف حيثما يقول الكاتب: " والله تعالى يفيء بكم إلى الحسنى إلى

ما فيه صلاح الدين والدنيا بقدرته " (٦٠).

وهكذا نلاحظ ما أحتوته خاتمة الرسالة من المعاني التي جاءت على سبيل التذكير والتثنية معتمدة أسلوب الوعظ والإرشاد والنصح القويم.

ويلاحظ الدارس للرسائل الجهادية أنها أعتمدت الدعاء ركنا من أركان التعبير على شكل جمل معترضة تفتتح بها الرسالة أحيانا أو تاتي في ثناياها، وتبدو هذه الجمل اكثر وضوحا إذا ما كان المخاطب ذا أهمية في مكانته كأن يكون أمير المسلمين أو من ينوب عنه حيث يكون الدعاء له بالحفظ والرعاية والتوفيق والتسديد والعصمة وبهذا يكون طابع الرسالة إسلاميا يجدد العزم ويثبت الهمة، ومن ذلك ما نقرأه في رسالة أبي بكر بن القصيرة على لسان أمير المسلمين في تسجيل إنتصار المسلمين بقيادة المرابطين في معركة الزلاقة، إذ يشير إلى تاريخ الانتصار وتحققه بتوفيق الله تعالى، ثم يتبع ذلك بجملتين دعائيتين، تتضمن الاولى دعاء على قائد الاسبان بوروده النار أو شموله بالذل والصغار ثم الجملة الأخرى قريبة من معناها ثم تأتي العبارات النثرية الاخرى في هذه المعاني الدعائية حتى تكاد تغطي سطور الجزء الاول من الرسالة: " وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين بما يسر الله في أمسه وسناه وقدره سبحانه وقضاه من هزيمة أذفونش بن فردلند أصلاه الله ـ أن كان طاح ـ الجحيم، ولأعدمه ـ أن كان امهل ـ العيش الذميم، كما قنعه الخزي العظيم " (٦١). وإذا مضينا مع الرسالة في جزء أخر منها وجدناها تلتزم النهج نفسه في الاكثار من الجمل الدعائية مع التأكيد على القصيدة وتأثيرها في النفوس ودورها في إذكاء روح الاستبسال والتضحية لتحقيق النصر بأذن الله : " فقد كانت طوائف العدو المخيفة بها ـ أهلكهم الله ـ عند أفراط تسلطها وإعتدائها وشدة كلبها واستشرائها بتلاطف بالإحتيال و تستنزل بالأموال وتخرج لها عن كل ذخيرة وترضي بكل نفسية خطيرة " (٦٢). وكل هذا وأمثاله يؤكد دور الدعاء في هذه الرسائل وكونه عنصرا مهما من عناصر التعبير الذي يعضد معاني الجهاد ويوثق صلته بالعقيدة، وينعكس بعد ذلك في نفوس المقاتلين شجاعة وقوة وعزما وإصرارا وحبا لله ورغبة فيما عنده مسترخصين في ذلك الغالي والنفيس من الاهل والمال والولد.

خصائص بيانية:-

مما لاحظه الدارسون للنثر في عصر الطوائف والمرابطين؛ العناية بالزخرفة اللفظية القائمة على ألوان البديع والبيان، وعلى هذا جاءت الرسائل الجهادية أيضا وكان حظها من هذه الصنعة واضحا يتناسب ومكانة التأنق وحب الجمال عند الأندلسيين ولكنه لم يكن مفرقا أو سفرطا على حساب المعاني الجهادية وأهداف الجهاد ومراميه، وأنما كان اداة فاعلة لإخراج الصورة المؤثرة والمثيرة؛ فمن صور البيان ماورد في رسالة أمير المسلمين إلى ابي محمد عبدالله بن فاطمة: " فأتخذ الحق إمامك، وملك يده زمامك وأجر عليه في القوي والضعيف أحكامك وأرفع لدعوة المظلوم حجابك، ولاتسد في وجه المصطهد المهضوم بابك، ووطئ للرعية - حاطها الله - أكنافك، وأبذل لها إنصافك " [٦٣]. فالمتأمل في هذه العبارات يقف على عديد من التعابير الإستعارية ومنها الإستعارة المكنية بصورة خاصة مثل قوله إتخذ الحق إمامك، وملك يده زمامك . . وهي تعابير مؤدية للمعنى بصدق ووضوح ومن هذا النوع ايضا ماورد في فتح بلنسية من نثر أبي الفضل بن شرف مثل قوله: " فالآن نشرا لميت من لحده، وعاد الحسام إلى غمده، فسبحان من سبب ما سبب وأدب بالموعظة من أدب محض الذلة فأزالها، وقدر العثرة فاقالها وأعاد نعمة كان قد أذهب خضراءها وأباد عفراءها، وفتح بابا سد رتاجه وصد منهاجه، حتى خر شامخه وذل باذخه، ثم نشر ميته ونجد بنيه، فهبت ريح النصر ومد بحر الظفر بعد الحسر " [٦٤]. ففي هذه العبارات يمكن ملاحظة جملة من صور الكناية في معاني النصر وما يترتب عليه من بشر وفرح وسعادة وإطمئنان بعد البؤس والترح والعناء والقلق ومن ذلك قوله: نشر الميت من لحده، عاد الحسام إلى غمده كناية عن عودة الحياة ألى المجتمع المهزوم المحطم وإزاحة كابوس الاستعباد والذل، وعاد المقاتلون إلى ثكانهم، ومن ذلك أيضا في سياق الصور الإستعارية: محض الذلة، وقدر العثرة، خر شامخه، ذل باذخه. وهكذا تتناوب هذه الصور بين الإستعارة المكنية والكناية بأنواعها مما يدل على ذوق أدبي رفيع وحس مرهف دقيق يعرض المعنى على القارئ أو السامع في صورة مؤثرة جميلة مما يجدد النشاط ويجلب الإنتباه. وإلى جانب الصور المرصعة يغني الكناية والإستعارة نجد عبارات قد

رضعت بالتشبيه لتقرب المعاني إلى الأذهان وتعرضها في جملة بهية وزخرفة لفظية في تشبيهات معبرة جميلة تخدم المعنى وتجعله أقوى تأثيرا في النفوس، ومن ذلك ماورد في رسالة أمير المسلمين إلى أهل اشبيلية يدعوهم في القسم الأول منها إلى جمع الكلمة ووحدة الصف ونبذ الخلاف ثم يوصيهم بعد ذلك بطاعة من ولي عليهم إذ هو خليفته فيهم والقائم على تدبير شؤونهم في الصغير والكبير، والحقير والجليل منها: " وأخلصوا السمع والطاعة لوالي أموركم وخليفتنا في تدبيركم والقيام بالدقيق من أموركم وسياسة جمهوركم اخينا الكريم أبي إسحق إبراهيم - ابقاه الله وأدام عزه بتقواه، وأعلموا أن يده فيكم كيدنا ومشهده كمشهدنا " [٦٥] فهو يشبه يد واليه بيده ومشهده بمشيده تأكيدا لمكانة وتثبيتا لجهوده في إدارة شؤون الولاية.

ومن هذا ماورد في رسالة كتبها أبو الفضل بن شرف إلى أمير المسلمين عن بعض رؤساء الغرب في فتح إقليش يقول فيها : " وعند ذلك نجم (العجم) في سواد الليل، وإزباد السيل، يهبطون إلى داعيهم، ويهرعون إلى ناعيهم، في دروع كالبواري، ورماح كالصواري كانما شجر وأباللديد وسجنوا في الحديد: " [٦٦] وبهذا تشكل التشابية الواردة في النص عنصرا مهما في إيداء المعنى والانسجام معه في الدلالة على شدة المعركة وضراوتها مع شجاعة المجاهدين وثباتهم.

ويمكن للباحث ايضا أن يلاحظ تعابير أخرى في التشبيه، ترد في سياق رسائل أخرى جهادية لتأكيد المعاني التي أريدت منها، وذلك على الرغم من قلة هذه الصور في الرسالة الواحدة للقياس الى توافر صور الكناية والاستعارة، وأن كانت داخلة أصلا فيها نظرا للعلاقة الوثيقة بين التشبيه وفني الاستعارة والكناية كما هو معلوم.

خصائص بديعية:-

وكما لاحظنا توافر الصور البيانية من خلال الفنون الثلاثة الرئيسة، فإننا نستطيع ملاحظة صور بديعية في الرسائل الجهادية معتمد جملة فنون علم البديع وفي مقدمتها السجع وإزدواج العبارة ثم الجناس والطباق بأنواعهما المعروفة بحيث لاتكاد تخلو.

أما السجع والازدواج: فلعلهما يبدوان بصورة أوضح وأكثر عددا من الفنون البديعية الاخرى وذلك ليس غريبا على النثر الاندلسي الذي اولع كتابه فيه بالترصيع والزخرفة من خلال إستعمال السجع والازدواج وغيرهما من أنماط التعبير البديعي. وذلك من مظاهر تأثر كتاب الاندلس بكتاب المشرق منذ عهد الجاحظ ثم عصور الكتابة بعده، فمن السجع ما ورد في رسالة الكاتب أبي القاسم بن الجد عن أمير المسلمين: " كتابنا أطال الله في طاعته عمرك، وأعز بتقواه قدرك، وشد فيما تتولاه أزرك وعد بالتوفيق والتسديد أمرك " (٦٧) وهكذا نلاحظ توالي السجع في العبارات المتوالية في الالفاظ التي جاءت معبرة عن المعاني في صورها الجمالية الرائعة.

وفي ذلك أيضا ما ورد في رسالة أبي محمد بن عبدون في فتح مدينة شنترين " ونخوض غمار كفاحهم وبحار صفاحهم، إلى بسط أشباحهم، وقبض أرواحهم ونهدي للقنا وصدورها رؤوسهم وإلى اللظى وسعيرها نفوسهم " (٦٨).

ونجد في السجعات المتوالية في هذا الجزء صفة جمالية تبدو في تكرار الضمير (هم) في نهاية الكلمة الاخيرة من كل عبارة، ولعل مما سهل هذا التكرار أنسجام الضمير مع مآل الاعداء وما حل بهم على أيدي المجاهدين المسلمين وهم يحررون بلدهم من أوضار الشرك والتحلل والفساد ويقرون الأمن والطمانينة في النفوس بقدر ما يحطمون من قوى أعدائهم البشرية والمادية. وعلى النهج نفسه تمضي عبارات الرسالة في أجزائها التالية مكونة الصور الفنية الادبية المعبرة ومما ورد مسجوعا في رسائل خطاب المتمردين أو المنهزمين أمام الاعداء في صيغ التهديد والوعيد مع اشدة والانذار، ما كتبه أبو مروان ابن أبي الخصال عن أمير المسلمين إلى جماعة إنهزموا أمام النصارى، يقول: " أما بعد يا فرقة خبثت سرائرها وأنتكثت مرائرها، وطائفة أنتفخ سحرها وغاظ على حي مدها بحرها " (٦٩) ففي هذه العبارات سجعات متوالية أع دت حرف لهاء ودلالة على الفئة المتخاذلة التي عظم جرمها وتقصيرها في حق بلدها وأمتها وعقيدتها، مما أظهر الانذار والوعيد والتهديد في صور مؤثرة تدعوا إلى الهلع والخوف ومضاعفة الجبن والخور في نفوس هذه الفئة الجبانة.

أما ظاهرة الازدواج، فانها تبدو في النثر الجهادي إلى جانب السجع لتسهم في تكوين العبارات بالأنتقال بين الظاهرتين وتجديد إهتمام القارئ أو السامع ودفع السأم الذي يتوقع أن يحصل فيما لو أستمرت صور السجع على سطح الرسالة برمتها كما أن ظاهرة الازدواج تدل على تعلق الانداسيين بها وحصرهم على ترصيع تعابيرهم بها أسوة بأخوتهم المشارقة وحرصا على التفوق عليهم وليس النسج على منوالهم فقط. ومن هذا ما ورد في رقعة لأبي الفضل بن شرف في فتح بلنسية يقول فيها: " وأن وافاك أكبر من رضوى حسدا، وأكثرمن حزوى عددا، تخطى بقدم العبد وتحظى بقدم الود، حتى زار الصفائح بالصحائف، وباشر الكتائب بالكتب للطائف وحياك بلسان الأقلام، تحت لسان الأعلام، حين أشرق وجه الدين فأسفر، وزهق حزب الملحدين فنفر" [٧٠]، ولا يخفى ما في هذه العبارات من جمال التعبير إذ جاءت كل عبارتين منتهية بحرف واحد بدأ بالدال ثم الألف والفاء والميم وهكذا أنتقل بين هذه الحروف التي جاءت ملائمة لمعاني العبارات ومنسجمة مع إيقاع اللفظ وحسن تأثيره وتأديتها لمعاني المطلوبة إلى جانب صور البديع والبيان التي وقعت كل منها في موقعها فتألفت بذلك صور أدبية تتسم بقدر غير يسير من الجمال والرقة والعذوبة وقوة التأثير. وهكذا لو مضينا مع عبارات الرسالة في الجزء التالي أو أنتقلنا إلى رسالة أخرى مثل ما جاء في هزيمة أبن رذمير مثل قول الكاتب " وهو عز وجهه أعدل الشاهدين جدا وعزما وكدحا لإعلاء كلمة الاسلام وحزما ببذل الاموال وتخيير الرجال، واعتيام الاسلحة والافراس والجمع بين الإيماش والإيناس في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد " [٧١]. وهكذا تمضي العبارات متنقلة بين هاتين الظاهرتين البلاغيتين في توضيف جميل ناجح وتصوير دقيق بارع يدل على الذوق والدربة والموهبة ويعتمد النثر الجهادي في عصر المرابطين الطباق والخباس من علم البديع وسائل لترصيع تعابيره وزيادة تأثير معانيه، بطريق الموازنة والمقابلة، وأظهر هاتين السمتين في هذا النثر: الطباق الذي يقوم على المعنى وضده في الكلام على إختلاف الموضوعات وتباين أقدراها، ومن ذلك عبارات وردت في رسالة الكاتب أبي محمد بن عبدون في فتح مدينة شنترين يقول فيها: " ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع، المنيعة المناصب على القاع قد استشرى داؤها وأعياد دواؤها، أستخرنا الله تعالى على صدها، وجزعنا إليه في تسهيل قصدها " [٧٢].

وأعياد دواؤها خرنا الله تعالى على صدها، وجزعنا إليه في تسهيل قصدها " (٧٢)

ففي قوله : استشرى داؤها وأعياد داؤها طباق من الالفاظ: داء ودواء واستشرى وأعياء كما أن اجتماع الألفاظ في عبارتين جعل الطباق من نوع طباق المقابلة فقد قام بين جملتين تضمان معنيين متقابلين وذلك من بلاغة التعبير وأتصافه بعمق الدلالة من قوة التأثير في إبراز المعنى المطلوب.

ويقول الكاتب في الرسالة نفسها متحدثا عن الاعداء وحالهم بعد أن منوا بهزيمة منكرة، وتحقق النصر للمؤمنين بقوة الله وتأييده وعونه: " ولم يكن لليل بأسهم سحر يتأمل ولالورد ضرائهم صدر يؤمل، إختاروا الدنية على المنية " (٧٣). وفي هذه الصور القليلة من الرسالة تبدو للمتأمل حالة البؤس التي إعترت العدو بهزيمته وتشتيت جمعه وإنهيار كيانه حتى عاد نهارهم ليلا وأملهم ياسا، وحياتهم موتا وإندحارا وفي ذلك تعبير بليغ عن حالة المنهزم المدحور حين يخسر كل شيء ويجلله الصغار والذل بعد العز والمنعة فهو ميت وإن كان حيا.

ونقرأ تعابير أخرى في الرسالة نفسها تؤكد حرص الكاتب على نقل الصورة الدقيقة الأمنية لما حصل للعدو وقد كان يشمخ بأنفه ويتباهى بقوته ويمعن في التنكيل والإيذاء والإساءة والإعتداء اعجابا بعدده وعدته وطمعا في ضعف المسلمين وتفرقهم. والكاتب في هذا كله يعتمد أسلوب التقابل في الالفاظ والعبارات في حرص كأنه يرسم لوحة دقيقة معبرة عن حال العدو بعد فشله وإندحاره.

ومثل هذه المقابلات في الألفاظ والعبارات تطالعنا بها الرسائل الجهادية في موضوع النصح والإرشاد والتقويم ولفت الأنظار إلى وجوب التزام الحق في الطريق المستقيم قولا وعملا وذلك في مثل ما نقرأ في رسالة أبي بكر بن القصيرة على لسان أمير المسلمين إلى أهل غرناطة: " فإلى متى تلحون في الطلب وتجدون في الغلب. وتفزعون النبع بالقرب، لقد آن لحركتكم في أمره أن تهدأ، ولنائرة بينكم أن تطفأ ولذاب بينكم أن تصلح، ولوجوه المراشد قبلكم ان تتضح(٧٤). ولايخفى على المتتبع لهذه العبارات وما بعدها ما فيها من توالي الالفاظ والعبارات المقابلة المؤدية للمعنى وضده في الكلام لاستكمال

الصورة الطلوبة.

وتسير الرسالة الجهادية على النهج نفسه في إعتماد أسلوب الجناس بنوعية مطرزة ألفاظها وعباراتها بهذا الفن البلاغي المعروف في أساليبنا العربية الصحيحة الفصيحة المعبرة واذا كان الجناس اتفاق اللفظين في جملة أمور تتعلق بأحرف اللفظة ونوعها وعددها وترتيبها ووزنها فإن المتأمل في هذه الرسائل يجد العديد من هذه الألفاظ المقصودة لتجميل المعنى وإكمال الصورة الأدبية شكلا ومظهرا وإيقاعا ومعنى.

ومن ذلك ماورد في رسالة أبي الفضل بن شرف في فتح بلنسية إذ يقول: " فالآن نشر الميت من لحده وعاد الحسام إلى غمده، فسبحان من سبب ما سبب، وأدب بالموعظة من أدب محض الذلة فأزالها وقدر العثرة فأقالها " [٧٥] . ففي اللفاظ: سبب، سبب، وأدب، وأدب جناس تام لاتفاق كل لفظين نوعا ووزنا وترتيبا وعددا ـ وفي هذا ما فيه من جمال التعبير ودقته وإصابته المعنى المطلوب في خلق الله عز وجل الأسباب التي تكون نظما وسننا للأنسان يعتمد ما في حياته ويفيد منها للوصول إلى الحق والطريق المستقيم كما تدل لفظتا الادب على ما يربى الله تعالى عباده عليه في حياتهم وعلاقاتهم أنماط سلوكهم لتستقيم شؤونهم ويستحقوا توفيق الله ونصره وتسديده لهم.

ويأتي الجناس في رسائل التهديد والوعيد في سياق مخاطبة المتمردين ومنه قول أبي مروان ابن أبي الخصال عن أمير المسلمين إلى جماعة من المرابطين إنهزمت أمام العدو : "أما بعد: يافرقة خبثت سرائرها وأنتكثت مرائرها. وطائفة انتفخ سحرها وغاض على حين مدها بحرها فقد آن لنعم ان تفارقكم والاقدام ان تطأ مفارقتكم.. [٧٦] فاذا تاملناالالفاظ سرائرها. مرائرها وتفارقكم ومفارقكم تبين لنا إتفاقها في جملة أمور وإختلافها في القليل منها وهذا ما يسمى بالجناس الناقص، وهو قد ادى المعنى في هذه العبارات أداء جميلا يتناسب ودلالة التعابير ومواطن الخطاب وحال المخاطبين. ونقرأ من هذا الجناس الناقص في رسائل أخرى عديدة منها ماكتبه أبو القاسم ابن الجد على لسان أمير المسلمين إلى أبي محمد عبد الله بن فاطمة.

أهم المصادر والمراجع:-

١. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس.

أحمد بن يحيى بن أحمد الضبي / مطبعة مدينة مجريط مطبع روخس، ١٨٨٢.

٢. البيان المغرب:

٣. تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر الطوائف والمرابطين / د. إحسان عباس

الطبعة الثانية ١٩٧١ دار الثقافة / بيروت

٤. التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة / ٩٢ ـ ٨٩٨هـ / ٨١١ ـ ١٤٩٢ق.م.

د. عبد الرحمن علي الحجي. الطبعة الأولى ١٣٩٦ / ١٩٧٦ / دار القلم / بيروت.

٥. الحلة السيراء: لأبي عبد الله محمد بن عبدالله ابن ابي بكر القصاعي/ المعروف بابي الأبّار القصاعي تحقيق د. حسين مؤنس / الشركة العربية للطباعة والنشر ط١ ١٩٦٣.

٦. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢هـ.

تحقيق د. إحسان عباس / الطبعة الأولى / دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٣.

٧. رسائل ومقامات أندلسية: تحقيق د. فوزي عيسى

كلية الأداب / جامعة الأسكندرية ـ منشأة المعارف بالأسكندرية، نشر / جلال جزى وشركاه.

٨. قلائد العقيان في محاسن الأعيان / لأبي الفتح محمد بن عبد الله القيشي ألأشبيلي الشهير بأبن خاقان، ت ٥٢٩هـ .

تحقيق د. حسين يوسف خريوش / مكتبة المنار ١٩٨٩ / ١٤٠٩هـ.

٩. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. :محمد عبد اله عنان وهو العصر الثالث: من كتاب الإسلام في الأندلس / القسم الأول: عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية:ط١ ١٣٨٣ /١٩٦٤، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٠. المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ عبد الواحد المراكشي المتوق منه ٦٤٧هـ

تحقيق: محمد سعيد العريان.

القاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م ـ مطابع شركة الإعلانات الشرقية.

١١. المغرب في حلى المغرب: أبو محمد الحجاري وعبد الملك بن سعيد وآخرون.

تحقيق د. شوقي ضيف / الطبعة الثانية/ منقحة. دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

١٢. النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين.

حازم عبد الله خضر،

منشورات وزارة الثقافة والإعلام / جمهورية العراق. طبعة دار الرشيد ١٩٨١.

الهوامـــــــش:-

(١) ينظر / النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، حيث أوجز القول عن النثر في فترة ما قبل عصر الطوائف ثم كانت الدراسة مستوعبة النصوص النثرية على إختلاف موضوعاتها وخصائصها وكان منها الرسائل الدينية، التي تشكل الرسائل الجهادية أحد موضوعاتها المهمة.

(٢) يرجع أصل المرابطين إلى قبيلة لمتونه وهي من بطون صنهاجه من البرانس؛ إحدى قبيلتين مشهورتين من البربر وهما (البرانس والبتر). أما رئيسهم فهو أبن إبراهيم الجدالي أحد أمراء جدالة - وهي بطن من بطون صنهاجه وشقيقة لمتونه، وكان يحيى قد توجه إلى أداء فريضة الحج مستخلفا إبنه ابراهيم، ولدى عودته تعرف في القيروان على أحد علمائها وشيخ المذهب المالكي أبي عمران بن موسى الفاسي وطلب إليه أن يرسل معه عالما يفقهه وقومه بالدين فأرسل معه عبد الله بن ياسين الجزولي الذي أقام رباطا للعبادة وكانت له جماعة من طلبة العلم يتعبدون ويتفقهون في الدين إلى جانب مرابطتهم في الثغور ومن هنا جاءت تسميتهم بالمرابطين ثم قويت شوكتهم وكثر عددهم حتى تولوا حكم المغرب.

ينظر كذلك عصر المرابطين والموحدين / عنان ص٣٧ / والنثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين -١٧ / ٦٤.

(٣) لمزيد من التفصيل ينظر: البيان المغرب حـ ص والمعجب.

(٤) التاريخ الأندلسي ٤٥٠ -٤٥١.

(٥) تاريخ الأدب الأندلسي / عصر الطوائف والمرابطين.

(٦) المعجب ص٢٢٧ / ٢٢٨ على التوالي.

(٧) المعجب ص٢٢٧ / ٢٢٨ على التوالي.

(٨) ذكر المزيد عن حالة الأدب في ظل الطوائف والمرابطين في كتاب: النثر الأندلسي ٤٨- ٦٠ وهذا الأيجاز هنا خاص بعصر المرابطين.

(٩) أبو عبد الله محمد بن أيمن كاتب مترسل ترجم له أبن بسام وذكر جملة من رسائله ق،م، ص ٦٥٢.

(١٠) الذخيرة ق٢م٢ ص٦٥٤.

(١١) نفسه ص٦٥٤.

(١٢) نفسه ص٦٥٥-٦٥٦.

(١٣) عنان عصر المرابطين والموحدين ق، ٥٣٨ / ٥٣٩.

(١٤) المصدر نفسه ص٥٤٠.

(١٥) عصر المرابطين والموحدين ص٥٤٠.

(١٦) المصدر نفسه ص٥٤٠.

(١٧) المصدر نفسه ص٥٤٠.

(١٨) المصدر نفسه ص٥٤٠.

(١٩) أبو بكر محمد بن عبد الملك المعروف بإبن المرخي؛ وزير كاتب من أهل قرطبة، من علماء اللغة ورجال الكتابة والأدب والأنساب. عرف به الفتح في القلائد حـ٢ ص٤٧٧ والضبي في البغية: ت ٢٠١. وأشار اليه أبن بسام في الذخيرة.

(٢٠) عصر المرابطين والموحدين في الاندلس ص٥٤٠.

(٢١) رسائل ومقامات أندلسية.

(٢٢) أبو بكر: محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي المتوفي سنة٥٠٨هـ من أعلام الكتاب ومشاهير البلغاء؛ عرف برسائله البليغة وكتاباته المؤثرة. كتب للمعتمد بن عباد ثم لأمير المسلمين وأولاده من بعده، ترجم له أبن بسام في الذخيرة وذكر جملة من رسائله في موضوعات مختلفة .

ينظر: الذخيرة ق١م٢ ص٢٣٩ وق٣م١ ص٨٤٢. وقلائد العقيان حـ١ ص٣٠٥ والمعجب / ٢٢٧.

(٢٣) وقعت معركة الزلاقة بعد جواز الأمير يوسف إلى الأندلس وكانت من المعارك الفاصلة في التاريخ الأندلسي بخاصة والعربي والإسلامي بعامة، إندحر فيها الأذفونش وهزم هزيمة منكرة. على الرغم من كثرة عدده وعتاده. / أنظر / الذخيرة ق٣م١ ص٢٤١ والمعجب ص١٩٣ ـ١٩٨ وغيرهما.

(٢٤) الذخيرة ق٣م١ ص٢٤٢.

(٢٥) الذخيرة ق٣م١ ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٢٦) نفسه ص٢٤٤.

(٢٧) أبو الفضل بن شرف: جعفر بن محمد بن شرف (ـ ٥٣٤هـ) أديب مشهور بالكتابة والشعر والحكم والأمثال، وله تصانيف كثيرة ونصوص في موضوعات شتى. ذكره أبن بسام وأورد له جملة من النصوص الأدبية / الذخيرة ق٣م٢ ص٨٦٧ ـ ٨٨٦. والقلائد ص ٢٥٢ والمغرب حـ٢ ص١٢٩.

(٢٨) الذخيرة ق٣م٢ ص٨٦٨.

(٢٩) أبو محمد: عبد المجيد بن عبدون اليابري (ت٥٢٥هـ) أديب مشهور من أهل الشعر والنثر سجل في أدبه كثيرا مما عاصره من الأحداث في ظل الطوائف والمرابطين وترجم له أبن بسام في ق٣م٢ / ٦٦٨ / والفتح في القلائد ٤١٨/٤١٧، والمراكشي في المعجب ١٤٨/١٢٨.

(٣٠) المعجب ص٢٢٩.

(٣٢) المعجب ص٢٢٩.

(٣٣) المعجب ص٢٣٠-٢٣١.

(٣٤) العجب ص٢٣١-٢٣٢.

(٣٥) ابو القاسم محمد بن الجد الفهري الفقيه الكاتب ت٥١٥، له معرفة واسعة في معارف وفنون عديدة وقدم راسخة في الادب والبيان، كتب لمرابطين ومنهم علي بن يوسف ترجم ابن بسام في ق٢م١ ص٢٨٥ والمعجب ص٢٣٧ والقلائد حـ١ ص٣٢٣-٣٢٤ والمغرب في حـ١ ص٢٤١ واورد صاحب الذخيرة جملة من رسائله في موضوعات كثيرة.

(٣٦) القلائد حـ١ ص٣٢٣ ـ٣٢٤.

(٣٧) المصدر نفسه حـ١ ص٣٢٤.

(٣٨) المصدر نفسه حـ١ ص٣٢٥.

(٣٩) القلائد ص٣٣٣.

(٤٠) المصدر نفسه ص٣٣٣/٣٣٤.

(٤١) أحد ولاة المرابطين في الاندلس على أشبيلية وبلنسية وغيرها، كان له جهاد وجلاد في الحفاظ على بلاد الإسلام ضد المعتدين الإسبان. القلائد ص٣٣٢، البيان المغرب حـ٤ ص٤٢/٤٤.

(٤٢) القلائد ٣٣٢.

(٤٣) المصدر نفسه ص ٣٣٢ـ٣٣٣.

(٤٤) قلائد العقبان ص٣١٠.

(٤٥) المصدر نفسه ص ٣١٠ـ٣١١.

(٤٦) المصدر نفسه ص ٣١١.

(٤٧) القلائد ٣٠٦/٣٠٧.

(٤٨) المصدر نفسه ٣٠٧.

(٤٩) المصدر نفسه ٣٠٧.

(٥٠) المصدر نفسه ٣٠٧/٣٠٨.

(٥١) الذخيرة ق٢م٢ ص٦٥٥.

(٥٢) المعجب ص ٢٣١.

(٥٣) قلائد العقيان ص ٣١١.

(٥٤) الذخيرة ق٣م٢ ص٥٥٩.

(٥٥) عصر المرابطين والموحدين ق١ ص٥٤٨.

(٥٦) المعجب ص٢٢٨.

(٥٧) رسالة بقلم ابن القصيرة على لسان أمير المسلمين إلى طائفة متعدية (القلائد٣٠٦/٣٠٧).

(٥٨) المعجب ص٢٤٠.

(٥٩) الذخيرة ق٣م١ /٢٤٢.

(٦٠) القلائد ٣٢٥.

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) الذخيرة حـ١ ق٣م٢ ص٨٦٨.

(٦٣) القلائد حـ١ ص٣٣٢.

(٦٤) الذخيرة ق٣م٢ ص٨٦٨.

(٦٥) القلائد ص٣٢٤.

(٦٦) عصر المرابطين والموحدين ق١ ص٥٣٧.

(٦٧) القلائد ص٣٣٢.

(٦٨) المعجب ص٢٣٠.

(٦٩) المغرب في حلي المغرب حـ١ ص٦٨.

(٧٠) الذخيرة / ق٣م٢ ص٨٦٨.

(٧١) عصر المرابطين والموحدين ق١ ص ٥٤٤.

(٧٢) المعجب ص٢٣٠.

(٧٣) المصدر نفسه ٢٣٠.

(٧٤) القلائد ص٣٣٣.

(٧٥) ابن بسام ، الذخيرة القسم الثالث م٢ ص٨٦٨.

(٧٦) المعجب للمراكشي ص٢٤٠.

(٧٧) قلائد التبيان / ابن خاقان حـ ٢ ص ٣٣٢.